منزلة العبقرية الدينية بين العبقريات

للاستاذ محمد خليفة التونسي

يقول الحكيم الهندي رابندرانات تاجور « إن كل طفل يولد دليل على أن الله لم ييأس من الانسانية بعد » .

ولا علينا أن نزيد : « وكل عبقري يفيض دليل ماثل يكشف حكمة الله في عدم يأسه من الإنسانية » .

وما جدوى الانسانية من البقاء ، بل ما جدوى الحياة والطبيعة كلها إذا كان بقاؤنا في ضيقه ورتابته وانحطاطه كبقاء الأرضات في سراديب الأرض المظلمة أو مملكة الظلام كما قال موريس مترلنك الشاعر البلجيكي ؟

وماذا في ميلاد طفل ؟

إنه دليل على تمسك الله بالانسانية ، إذ لم ييأس منها ، وعلى أنها لا تزال أهلا لأن يرفعها باستعدادها لقبول نعمه ، ولكن الحكمة في عدم يأسه منها خافية ، والدليل على استعدادها عنا مستور .

وماذا في نبوغ عبقري ؟

إنه دليل على ذلك كله ، وعلى شيء فوق ذلك كله .

دليل على تمسك الله بالانسانية ، واستعدادها لتقبل ما يفيض عليها من نعمه ، رسلاحها لأن يرفعها إلى أفق أرفع من أفقها الذي هي فيه عن رضا وطواعية ، ودليل أيضا على قبولها نعمه فعلا وتحقق صعودها إلى أفق أعلى راضية طيعة . فحكمة الله في عدم يأسه من الانسانية هنا بينة ، وحجته لنا ظاهرة .

إذا كان ميلاد طفل دليلا على استعداد خفي في الانسانية لنعم الله ، وعلى حكمة خفية علينا في استمساكه بها ، فان نبوغ عبقري دليل على بروز نعمه وحكمته من عالم الأمر إلى عالم الخلق ، أو من عالم الغيب إلى عالم الشهادة بلغة القرآن الكريم ، أو من عالم المثال إلى عالم الحس بلغة أفلاطون ، أو من عالم القوة إلى عالم الفعل بلغة أرسطو ، أو من عالم الفكرة إلى عالم الارادة بلغة شوبنهاور . (١)

وشتان في وجودنا المحدود بين الشيء أملا لم يتحقق ، والشيء نفسه حقيقة قائمة ، ومهما يتساوى في قدره القادر ، وإبداع البدع بل في علم العالم أزلا وليسا سواء في وجودنا الزماني الناقص ، وهذا هو ما يعنينا نحن أبناء الزمان الفانين .

نبوغ عبقري دليل على تحقيق بعض الآمال التي ناطها الله بالانسانية ، ورفعه إياها من أفق إلى أفق أعلى وأرحب وأجل ، ونسخها من شكل إلى شكل أصفى وأصدق تمثيلا لقدرته وإبداعه ، وأفصح تعبيرا عن حكمته ، وأشد تحقيقا للقوى الكامنة التي بثها فيها ، وأدنى إلى الغايات التي يجذبها إليها خلال سيرها نحو الكمال المقدور للمخلوقات الفانية في شوقها الى الله .

إن الخلق هو أعظم النعم ولا ريب كيفما كان .

ولكن تمام هذه النعمة لا يتحقق إلا بالامتيازات التي يسبغها الله على من يصطفيهم من مخلوقاته على مقتضى حكمته ، وهو يخلق ما يشاء ويختار . فإذا هؤلاء الممتازون أنس الحياة وجمالها وموغها ، وحجة الخالق التي يمتحن بها المتكرون ، ويزداد بها المؤمنون إيمانا ويقينا واطمئنانا .

لا يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات والنور .

ولا يستوي الذي لا يعلمون والذين يعلمون .

ولا يستوي الأموات والأحياء

ولا تستوي الانسانية ضالة ضائعة قبل نبوغ العبقري فيها ، والانسانية رشيدة شاعرة بمكانتها بعد نبوغ العبقري .

---

(١) من مقال الكاتب هذه السطور نشر في احدى الصحف اليومية منذ شهور .

وإذا استجابت الانسانية إلى دعوة العبقرى طهرت أرواحا من أكدارها ، وانكسرت عن قواها أغلالها ، وزالت عن أبصارها عشاواتها ، وانسلخت عن قلوبها أركنتها ، فشمرت بالصلات الوثيقة التى تربط كل شيء فيها بكل شيء ، والصلات الوثيقة التى تربطها كلها بالوجود كله من وراء تلك الصلات أو من خلالها ؛ وانطلقت بهدى العبقرية نشيطة فى حياتها ، متدفقة نحو الغاية التى أريدت لها ، عاملة بكل القوى التى بثها الله فيها . وإنها لتعمل وسعها ولو لم تعرف الغاية الصحيحة من وراء عملها لأنها مدفوعة إلى العمل بقوى جبارة تنفجر من أغوار النفس البعيدة فلا سلطان لها عليها ، ولأنها تجد فى العمل لذة اللعب أو الرياضة وجمالها ، وحسبها ذلك من غاية لأعمالها ، ولتكن عندها من وراء ذلك أو لا تكن غاية ظاهرة أو خفية .

تاريخ الانسانية هو تاريخ عباقرتها وآثارهم فيها ، فلو انتزعوا من تاريخها لم يبق لها تاريخ .

تاريخ الانسانية عمل فنى ، عنصر الفن الأصيل فيه وينبوعه هو العبقرية ، ولذلك لا يحسن كتابة تاريخها إلا فنان .

تاريخها صور العبقريات المشرفة ، وانعكاساتها من نفوس الناس .

وتاريخها عزف لأصوات العبقريات وأصدائها فى نفوس الناس .

وما لم يكن نور فلا انعكاس ، وما لم يكن صوت فلا صدى .

ومن لم يشعر بالتاريخ شعور الفنان لم يع من التاريخ حرفاً ، ولو استوعب الزمان والمكان من البدء إلى النهاية . ومن لم يعبر عنه كما يعبر الفنان عن شعوره بما يجيش فى نفسه لا يكتب منه حرفا ، ولو أن ما فى الأرض من شجر وغيره أقلام ، ومياه البحور مداد ، والأرضين والسماوات صحائف يسود وجوهها بجهله وغباوته .

لا يستجيش فى نفس الايمان الكامل الخالص شيء فى الانسانية إلا العبقرية .

ولا يستحوذ على ايمانى كاملا خالصا أحد من الناس إلا العباقرة .

وما ساورنى شك فى أنه لا توجد نفس إنسانية أبدا تخلو كل الخلو من نور العبقرية أصيلا فيها ، وكل الفرق بين العبقرية الشاحبة والعبقرية المطموسة هو الفرق بين نور قوى عظيم يتدفق فى النفس فيجرف السدود والحدود ؛ ويفيض على الجوانب فيظهر ويبهر ، ونور ضعيف ضئيل يبض قطيرة قطيرة فى غور سحيق من وراء سدوده وحدوده المطبقة عليه اطباقا ، فلا تراه عين ، ولا تسمع بخبره أذن حتى يتلاشى فى التراب . وبين هاتين المرتبتين مراتب لا يحيط بها إلا علم الله ، تظهر أو لا تظهر حسب قوتها والظروف المهيئة لها .

إن العبقرية أهل للتقديس على اختلاف مشاربها : كيفما أشرقت ، وأينما أشرقت ، ومتى ما أشرقت .

لا يختلف فى تقديس عبقرى عن عبقرى باختلاف ميدانه ولا مكانه ولا زمانه ولا آثاره ، ولكن بحظه من العبقرية .

وإذا قيل : إنما ينعم الله بالعبقرية لمصلحة الناس ، فأخذنا آثارها التى هى من شأنها سواء اظهرت أم لم تظهر فعلا مقياسا لتمييزها ـ لوجب أن نقدم من بين رجالها عباقرة العقائد الذين يؤمنون ويعلمون الناس بالايمان ، أو يثيرون فى نفوسهم الايمان .

عبقرية العقيدة من شأن صوتها أن يكون صداه أوسع انتشارا بين النفوس ، وأن يكون أثره فى النفس القابلة لترديده أغزر وأعمق وأشمل تأثيرا فيها من كل صدى سواه .

١ — فعبقرى العقيدة ـ حين يعلم الناس عقيدته ـ ينفجر فى نفوسهم بواعث الايمان ، فتنفجر فيها فى وقت واحد بواعث الحياة ، وبواعث الفضيلة ، وبواعث الشعور ، وبواعث الفكر ، وسائر البواعث الكامنة فى بنيتها ، ومن ثم يكون أثر العقيدة فى النفس أنوى وأعمق وأشمل من سائر الآثار .

٢ — ليس لزاما فى المستجيبين للعقيدة أن تكون لهم ملكات إنسانية ممتازة ، ولقد تكون الملكات العقلية الممتازة حائلا دون الاستجابة للعقيدة ، وبخاصة إذا لم تقابلها ملكات نفسية تكافئها وتحفظ للنفس أريحيتها كى تستجيب للواجب إذا دعاها وتحبب إليها أو تهون عليها البذل والفداء .

وحسب الناس أن تكون لهم ملكات نفسية عادية قابلة للتفجر أو الاستجابة حتى يكون لعبقرى العقيدة أثره فى نفوسهم ، كى يفجر فيها بواعث الايمان تلبية لعقيدته ، فتتفجر معها شتى البواعث الكامنة فى بنيتها فى فترة واحدة ، كما تتفجر كل الذرات فى القنبلة الذرية بتفجير ذرة واحدة فيها .

والملكات النفسية العادية — وهى كل ما يلزم لتقبل العقيدة — موفورة لكثير من الناس العاديين ، وما كانوا عاديين إلا لأن ملكاتهم عادية ، ومن ثم كان صوت عبقرية العقيدة اوسع انتشارا فى الناس من صوت غيرها .

٣ — وإذ أن الدخول فى العقيدة لا يستلزم من الانسان مواهب ممتازة ، بل حسب الانسان فيه تسليم وسلوك بسيطان — فإن اعتناق العقيدة يحول صاحبه فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الناس امتيازا يرضى كبرياءه ، ويشبع غروره ، ويعد له فى الطموح والرجاء ، ويجعله هو ومن هم أسمى منه مكانة بأى سبب من الأسباب متساوين فى التعصب للعقيدة والغيرة عليها والتمتع بحقوقها وحمل مسئولياتها ، من غير أن يكلفه ذلك أن يكون مستحوذا على مواهب ساميـــة كمواهبهم ، أو كفاية عظيمة ككفاياتهم ، بل قد لا يكلفه ذلك إلا مجرد التعصب لها ، وحسبه ذلك الامتياز من جزاء عاجل فى الدنيا فضلا عن الجزاء الموعود فى الدنيا أوالاخرى أو الاثنتين مما مادام معتصما بعقيدته وما أسخى العقائد بالوعود العاجلة والآجلة التى تمد فى الرجاء ، وتغرى بالطموح ، وتدعو إلى الصبر والمثابرة والسراء .

٤ — معتنق العقيدة لا يشعر ولا يفكر ولا يعمل فى معزل عن الجماعة ، ولو كان خاليا بنفسه ، بل هو يشعر ويفكر ويعمل كعضو فى بنية الجماعة ، وذلك كفيل بأن يثير فيه كل كفاياته الفردية والاجتماعية مما ويشعره على الدوام بصلات قوية تربطه بالمجتمع ، فيكون أشد شجاعة وصلابة فى آرائه ومذاهبه ، وأعظم استعدادا للبذل والمفاداة ، وأدق معرفة بما يأخذ وما يدع من الانسان الذى يحيا بغير عقيدة ، والانسان يحيا بعقيدة بالية قد فترت وباخت فى نفسه ، وذو العقيدة يشعر كذلك بالاطمئنان والأنس والعزاء أعظم مما يشعر غير ذى العقيدة إذ يحس نفسه مبتور الصلات بالمجتمع ، وأعظم مما يشعر ذو العقيدة البالية الفاترة إذ يحس بتهافت الصلات بينه وبين المجتمع . وفى إحساس هذين النوعين ما فيه ، ومعه ما معه من احساس باللعنة والبلبلـــة والاضطراب والتيه ، وكله مما يثبط الهمم ، ويغشى البصائر ، ويغرى بالجبن والحرص والانكماش . فالانسان هو — وهو يحس بالمجتمع ، ويستجيب لدواعيه — أقوى وأبصر وأشجع منه وهو محروم الإحساس به مصروف عن تلبيه دواعيه . إذ لا قوة ولا بصر ولا شجاعة إلا بإيمان .

هذا إلى أن العقيدة تربط الجماعة أقوى مما تربطها رابطة اجتماعية أخرى أساسها الاشتراك فى رأى ، أو عمل ، أو مهنة ، أو مكان ، أو نحو ذلك مما يشعر الجماعة بوجود مصلحة مشتركة بين أفرادها لا غنى لهم عن التعاون عليها ؛ فالعقيدة تثير كل القوى وتستوعبها ، وتحدد الغاية والوسيلة ، وتتسع حتى تشمل الحياة وقد تمتد إلى ما وراء الحياة ، ولا تدانيها فى ذلك رابطة اجتماعية أخرى ولا باعث حيوى آخر .

٥ — وعبقرى العقيدة يعى من خفايا النفوس الانسانية بداهة أوضح وأكثر مما يعيه غيره بالتفكير الطويل بالغا ما بلغ من الذكاء والدربة والصبر ، ، لأن نفس العبقرى صورة شاملة للنفس الإنسانية على اختلاف قواها وأحوالها ونزعاتها واحتمالاتها ، ومن ثم يعى هذا العبقرى كل صغير فى الناس وكبير ، ويعى حقه وواجبه الذى ينبغى له ، وطريقه الذى يصلح له ويغنى فيه ، وما يحس معه أو يسوء من السياسات ، فيسوس كل نفس بسياستها الخاصة ، ويشرع لها شريعتها الملائمة بلا بخس ولا محاباة .

٦ — وشخصية عبقرى العقيدة وسيرته مثل حي مجسم لعقيدته ، فهو لا يقول إلا ما يفعل ، ولا يفعل إلا على هدى من عقيدته ، ولا يدعو إلى ما دعا نفسه إليه فأجابته ، ولا يكلف نفسا إلا ما كلف نفسه مثله أو أشق منه ، وهو فى طاقة المستجيب بعد أن أمدته بواعث الايمان بكل ما فى نفسه من استجابة تكفل السمع ، وتكفل الطاعة ، ومن ثم تكون شخصية عبقرى العقيدة وسيرته وأقواله مصدر حياة وإيمان وتشريع ، وذلك